

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومي مذكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

- ٥ -

ليس تائر ابن سينا بافلاطون من الأمور التي تتطلب اثباتاً جديداً ، فقد فرغنا منه من قديم وأضحى واضحاً وضوحاً لا يقبل الشك . وإذا كان شيخ الأكاديمية قد استطاع أن ينفذ إلى فلاسفة الاسلام جميعاً بالرغم من تعصبهم لأرسطو فان أثره في الأستاذ الرئيس أعمق ، وملامته لتفكيره أتم وأكمل . وقد ينافيما سبق كيف قال ابن سينا بجهورية النفس على نحو ما ذهب إليه أفلاطون . ونريد اليوم أن نوضح موقفه إزاء روحيتها ، فنهى بذلك فرصة أخرى لاظهار ما اشتملت عليه فلسفته من نزعات وآراء أفلاطونية ابن سينا روحى في طبيعته ، فالتغيرات الكونية ترجع في رأيه إلى قوى خفية تحدثها وتشرف عليها ؛ روحى في طبعه ، إذ يعتبر النفس الانسانية مهمة على كل الأجهزة والعصارات الجسمية ؛ روحى في فلكه ، فانه يذهب إلى أن الأفلاك والكواكب إنما تستمد قوتها وحركتها من نفوس خاصة موكله بها ؛ روحى في ميتافيزيقاه ، ولا أدل على هذا من أن عالم ما وراء الطبيعة في نظره حافل بعقول قديمة أزلية كلها تفكير ونظر وتأمل ؛ روحى أخيراً في أبحاثه السيكلوجية ، بدليل أن النفس عنده هي كل شيء والجسم والحواس مجرد آلة لها وأداة . ونستطيع أن نقول إن فلسفته كلها تلخص في مذهب روحاني تتجاذب أطرافه وتتأجج نواحيه . وفيلسوف هذه نزعة لا يدخر وسعاً في البرهنة على روحية النفس ولا يميل حديثاً كهذا ، بل على العكس يعنى به ويذهب فيه مذاهب شتى ، فليجأ تارة إلى بعض الأفكار الرياضية مستعيناً بما فيه من لباقة ومقدرة جدلية ليحمل القارىء على التسليم بهذه الروحانية . ويركن تارة أخرى إلى معلوماته الطبية

لا تخفى أنها مصممة على سحق جميع هذه المحاولات الفاشستية والاحتفاظ بسيادتها في البحر الأبيض المتوسط ، وتدعيم نفوذها وسيادتها حيثما يقتضى الدفاع عن امبراطوريتها الاستعمارية الشاسعة . والمسألة الاسبانية هي أول مظهر من مظاهر النضال بين السياستين ؛ فكأن رومة تحاول أن تدفع تدخلها في الحرب الأهلية الاسبانية إلى النهاية أو حتى يظفر الجنرال فرانكو وتقوم في اسبانيا حكومة فاشستية تخضع لنفوذ ايطاليا ، فكذلك السياسة البريطانية تعمل على احباط هذه المحاولة بتدعيم سياسة عدم التدخل ، وعزل ايطاليا عن باقي الدول ، وإظهارها بمظهر المعتدى المهدد لسلام القارة ؛ وانكلترا تفوز في هذه السياسة بتأييد فرنسا التي تخشى عواقب التدخل الفاشستى في اسبانيا مثل ما تخشاه انكلترا ، وتأييد روسيا السوفيتية التي تناصر الكتلة الديموقراطية ، والتي تعاون اسبانيا الجمهورية على مقاومة الثورة الفاشستية منذ نشوبها . وما يلاحظ أيضاً أن المانيا تبدي الآن فتوراً ظاهراً في تأييد وجهة النظر الايطالية مما يدل على أنها قد ملت التدخل في مغامرة لا تؤمن عواقبها ؛ هذا إلى أن حوادث الحرب الاسبانية ذاتها تدل على أن الجبهة الثورية الفاشستية قد سرى إليها الضعف والوهن ، فانتصارات الجمهوريين الأخيرة حول مدريد وفشل الثوار في جميع هجماتهم الأخيرة وما أذيع من وقوع التمرد في بعض الوحدات الثورية في المغرب الانباني ، كل ذلك يؤذن بأن مصائر الحرب الاهلية تتطور في صالح الجمهورية الاسبانية . ولندكر أخيراً أن اتفاق عدم التدخل الذي وقفت الدول إلى عقده وتنظيمه ، سينفذ بطريقة فعلية في أيام قلائل بحيث يغدو من المتعذر على أحد الفريقين المتحاربين أن يتلقى المدد من أى ناحية . وفي اعتقادنا أن الثورة الاسبانية التي قامت منذ الساعة الأولى بتحرش الفاشستية ومعادتها المادية ستتهار عندئذ بسرعة ، ونحسم هذه المعركة الطاحنة بفوز الديموقراطية الاسبانية ، وبذلك يقضى على تلك العوامل الخطرة التي تلوح في الأفق منذ أشهر مهددة سلام أوروبا ، والتي كان لشهوات الفاشستية وذرائعها المضطربة أكبر فضل في بعثها وتغذيتها

وملاحظاته السيكلوجية فيتخذ منها أدلة أخرى لا تقل عن السابق إغاما

فيقرر أولاً أن النفس جوهر يدرك المعقولات والمعاني الكلية ويشتمل عليها؛ وجوهر هذا شأنه لا يمكن أن يكون جسماً أو قائماً بجسم، ذلك لأننا إن قلنا بجسميته لزم أن تحل المعقولات في مكان، وهذا محال. فإنها إن شغلت حيزاً فاما أن يكون قابلاً للقسمة أولاً، وما لا يقبل للقسمة هو تلك النقط الهندسية التي يتكون منها الخط والتي لا توجد منعزلة مطلقاً؛ فلا يمكن أن تكون محلاً لشيء ما. وعلى هذا لم يبق إلا أن تكون المعقولات حالة في مكان قابل للقسمة. وفي هذا الغرض أيضاً صعوبات كثيرة لا سبيل إلى تذليلها ومتناقضات لا نستطيع رفعها، وأهمها أن الكلي يصبح قابلاً للقسمة تبعاً للحيز الذي يشغله فيصير شكلاً هندسياً أو كمية عددية بدل أن يكون فكرة عقلية. وإذا قلنا بقسمته فهل هو مكون من أجزاء مكررة متشابهة أو غير متشابهة؟ إن أخذنا بالأول قادتنا إلى نتيجة واضحة البطلان وهي أن يتكون الكل المتنوع المميز من جزء واحد مكرر؛ وإن ذهبنا إلى الثاني كان معناه أن الكلي قابل للقسمة إلى ما لا نهاية، شأنه في هذا شأن الجسم الذي حل فيه. ونحن نعلم أن الكليات وإن قسمت إلى أجناس وأنواع ينبغي أن تقف عند حد في هذا التقسيم، فهي في ذاتها قابلة للقسمة إلى نهايته، وتبعاً للحيز الذي تشغله يمكن تقسيمها عقلاً إلى ما لا نهاية، وهذا تناقض صريح. على أن هناك معقولات بسيطة لا تقبل القسمة بحال فكيف تصورنا شاعلة لحيز قابل للقسمة؟ وإذا بطل كل هذا فالجوهر الذي تحل فيه المعقولات روحاني غير موصوف بصفات الأجسام، وهو ما نسميه النفس^(١). وواضح أن هذه النفس هي التي تجرد الكليات عن الكم والالين والوضع وتستخلصها من الجزئيات فلا يمكن أن تضعها في حيز جديد؛ ولن يصير الكلي كلياً ولا المعقول معقولاً بالفعل إلا إذا انتزع من المكان وفهم في ذاته بعيداً عن عوارض المادة^(٢)

هذا هو أعنف برهان يستدل به ابن سينا على روحية النفس؛ ويظهر أنه كان معتداً به كل الاعتداد، فإنه ساقه في كل كتبه السيكلوجية التي وصلت إلينا في أشكال وألوان مختلفة بعضها أغمض وأعقد من بعض؛ وربما كان أوضحها نسياً ما جاء في كتاب النجاة. وليس القول بأن المعقولات لا تشغل حيزاً فكرة مبتكرة اهتدى إليها ابن سينا وحده، فإننا نجد لها لدى الأغرقي من قديم؛ وأرسطو بوجه خاص يفصل الكلام في وجود الكليات مبنياً أنها موجودة في الجزئيات بالقوة وفي الذهن بالفعل. والوجود الذهني هو الوجود الحقيقي؛ وإذا كان بينه وبين الوجود الخارجي من فارق فهو أنه مجرد عن الماديات^(٣). وإنا لنرى بين المسلمين كذلك الفارابي يحاول من قبل البرهنة على روحية النفس محاولة نظن أنها التي ألهمت ابن سينا برهانه الذي نحن بصدده، فهو يلاحظ أن المعقولات تتنافى مع الحيز بطبيعتها، وما دامت النفس تدركها وتشتمل عليها فهي جوهر مفارق للمادة^(٤). يد أن الجديد لدى ابن سينا هو ذلك الجدل المحكم والالزام المبني على أقيسة اقترائية وقسمة ثنائية لا يلبث المرء أن يسلم أمامها بالمطلوب ورضي أم لم يرض. وقد لا نستطيع نحن الآن كثيراً هذا الطراز من الإثبات، فإنه أشبه بالمنافضة اللفظية منه بالبحث العلمي، إلا أنه كان من مميزات القرون الوسطى عامة، ولا بد من سينا بوجه خاص فيه قدرة فائقة. ومع هذا فلن نعدم المائلة في إنكار بعض مقدماته أو الطعن في بعض قضاياه، ولكننا لا نحب أن نسترسل في أمر نعتقد أنه قليل الجدوى. ومهما يكن من شأن البرهان السابق فإنه يعتمد على مبدأ لا يزال علم النفس الحديث يقره. فإن المحدثين يفرقون بين الظاهرة الجسمية والنفسية بأن الأولى هي التي تشغل حيزاً في حين أن الثانية مجردة عن المكان، وكل ما تقاس به هو الزمان الذي تحدث فيه. ولئن فات ابن سينا أن ينمي معلوماتنا السيكلوجية ببرهانه هذا فإنه سيعرض علينا ذلك يبراهينه التالية

(١) ابن سينا، (الشفاء)، ج ١، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ : (النجاة) ،

٢٨٥ - ٢٨٩ : (الاشارات) ، ١٣٠ - ١٣٢ : رسالة في القوى النفسانية ، ٦٧ - ٦٩

(٢) (الشفاء)، ج ١، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ : النجاة ، ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(٣) الفارابي البرهنة المرضية ، ٦٤ ، ٧٦ : المفاوكت ، ٧ - ٨ .

(٤) Aristotele; de l'âme, III, 4.

كم كنا نود أن نجد السيل الى ملاحظة النفس في ذاتها لنقف على طبيعتها وميزاتها . فاما ولا حيلة لنا الى ذلك فلنلجأ الى آثارها ووظائفها فان فيها خير معين على فهم كنهها . وكثيرا ما قام الاثر دليلا على الازر وأعانت الوظيفة على توضيح مصدرها . ومن أهم وظائف النفس والصقها بها الإدراك ؛ وانا لنلحظ فيه ظاهرة غريبة هي أن النفس تدرك ذاتها وتدرك أنها تدرك ، وفي هذا دليل قاطع على أن ادراكها مباشر وبدون واسطة . ذلك لأنها لو كانت تدرك بآلة جسدية لا نعدم كل هذا وما استطاعت أن تدرك نفسها ولا أن تكون شاعرة بإدراكها ، بل ولا أن تدرك الآلة التي تستخدمها . ويمكن أن نقارن هذا الإدراك العقلي بالأدراكات الحسية أو المتصلة بالجسم لتبين الفرق بينها . فبينما النفس تدرك ذاتها وتدرك إدراكها لا تستطيع حاسة ما من حواسنا أن تحس نفسها ولا احساسها ولا العضو الذي يوصل اليها هذا الاحساس ، اللهم إلا إن عكس اليها بمرآة ونحوها . وكذلك الخيلة لا تتخيل ذاتها ولا فعلها ولا آلتها ، وانما تتخيل أمرا خارجا عن كل ذلك . واذن تكون النفس الناطقة من طبيعة غير طبيعة هذه القوى الجسمية (١) .

وفوق ذلك فهذه القوى تتأثر بما تقوم به من مجهود . فان عظم مجهودها أو استخدمت زمنا طويلا بدا عليها التعب والاعياء وعز عليها أن تقوم بوظائفها في دقة . فالقراءة الطويلة تضعف العينين ، والضوء الشديد قد يعشيها فلا تكادان تبصران ، والرعد القاصف قد يصم الأذنين . وليس أثر هذه الاحساسات الشاقة بمقصود على وقتها ، فقد يبقى بعدها زمنا ، فن أبصر ضوءا عظيما لا يبصر معه ولا عقبه ضوءا ضعيفا ، ومن سمع صوتا قويا لا يسمع معه ولا على أثره صوتا ضئيلا ، ومن ذاق طعاما شديدا الحلاوة لا يحس بعده خفيف الطعوم ، وعلى عكس هذا يزداد العقل فضجا كلما استخدم وقام بوظيفته ، واذا حل مسألة معقدة كان في هذا ما يعينه على حل ما هو

أعقد منها . حقا أنه قد يبدو متعبا أحيانا ولكن هذا راجع الى ما يتصل به من ظروف عضوية ، فانه يستعين بالخيلة كثيرا وهي مرتبطة بالجسم ارتباطا وثيقا (٢) . وأخيرا كل أعضاء الجسم تضعف تبعا لتقدم السن ، ويبدأ هذا الضعف عادة بعد سن الأربعين . لكن القوة الفعلية تخالف هذا تمام المخالفة ، فهي لا تكتمل إلا حين يجاوز الانسان هذه السن . يقول ابن سينا : « لاشك أن الجسم الحيواني والآلات الحيوانية إذا استوفين سن النمو وسن الوقوف أخذن في الذبول والتقص وضعف القوة وكلال المنة ، وذلك عند الاثابة على الأربعين سنة . ولو كانت القوة الناطقة العاقلة قوة جسمية آلية لكان لا يوجد أحد من الناس في هذه السنين إلا وقد أخذت قوته هذه تنقص ، ولكن الأمر في أكثر الناس على خلاف هذا ، بل العادة جرت في الأكثر أنهم يستفيدون ذكاء في القوة العاقلة وزيادة بصيرة ؛ فاذن ليس قوام القوة النطقية بالجسم والآلة ، وإذن هي هي جوهر قائم بذاته (٣) . » وأما ما يبدو من نسيان أو ضعف في التفكير أو خطأ في الأحكام أثناء الشيخوخة فليس راجعا إلى نقص أو اضطراب في القوة العاقلة ، وإنما مصدره مؤثرات جسمية وعضوية . ويان ذلك أن النفس تؤدي مهمتين متباينتين ومتعارضتين تقريبا : فهي تسوس البدن وتدير أمره ، كما تقوم بالتفكير والتعقل . وكثيرا ما عز عليها الجمع بين هذين الأمرين ؛ فيحول الحس دونها والاسترسال في النظر والتأمل ، كما يصرفها البحث العميق ولو مدة معينة عن حاجات الطعام والشراب ، فما نظنه من ضعف التفكير أو تعطل العقل لدى الشيخ أو المريض منشؤه أن النفس قد شغلت بمهمتها الجسمية ، بدليل أنها تسترد كل قوتها العاقلة إذا ما زال المرض (٤) .

هذا هو مجمل البراهين التي يستدل بها ابن سينا على روحانية النفس ، وفيها من غير شك ملاحظات سيكولوجية

(١) (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٢٥٠ - (النجاة) ، ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) ابن سينا ، رسالة القوى النفسية ، ص ٧١ .

(٣) (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ : (النجاة) ، ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(١) ابن سينا ، (الشفاء) ، ج ١ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ : (النجاة) ، ص ٢٩٢ - ٢٩٤ : (الاشارات) ، ١٢٢ - ١٢٤ : (رسالة في القوى النفسية) ، ص ٧٠ - ٧١ .

في الأدب المقارن

الطور الفني

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ نغري أبو السعود

نمعرّف به الإنسان أنه حيوان يتذوق الفن ، فحب الفن طبع فيه ، تبدو مظاهره حالما يأمن على نفسه ويتوفر له قوته وحاجاته ، فإذا ما فرغ من الضروري من أموره التفت إلى الكمال ، وطلب الفن والجمال ، ومن ثم تظهر بعض الفنون بدائية بين الجماعات المتبدية ، وترتق بينها وتنوع بقدر ما تسمح به بيئتها ودرجتها من الرقي المادي والعقلي . والرّقص والموسيقى والشعر من الفنون السابقة إلى الظهور ، لقلة ما تحتاج إليه من المواد الأولية ، أما التصوير والنثر الفني والنحت والعمارة ، فأكثر تأخرًا عنها ، لما تحتاج إليه من تقدم الصناعة والمعرفة بالكتابة والاستقرار في موطن ومهما بلغ الشعر من التقدم في عهد البداوة فما يزال محدود الجوانب قريب الأغوار متشابه الآثار ؛ فإذا كانت الحضارة والاستقرار والثقافة والتدوين ، اتسعت مواضع الشعر باتساع جوانب العمران ، وبعد غوره باستفادته من العلم ، وجاد أسلوبه باستخدامه التدوين والتروى ، واتصلت الجهود فيه وتكاثر الابتكار بتوفر الوقت للتفرغ والتفنن ، وظهر بجانب الشعر أخوه الأصغر سنًا وهو النثر ، وظهر بجانب الشعراء الكتاب ، وبظهور النثر يمتد مجال الأدب حتى يتأخم مجال العلم أو يتداخل وإياه ، وإذا بدون الأدب يطلع عليه أبناء الأمم الأخرى ويطلع أدباؤه على آداب تلك الأمم ، فيتأثر بها ويؤثر فيها ، بعد أن كان الشعر في عهد البداوة معزولاً لا يحس به سواء ولا يعلم هو بوجود غيره ، ويتفقد الأدب توارثه جيل عن جيل ، ويزداد تراثه باطراد ، بعد أن كان في عهد بداوته سريعاً إلى التلاشي في ضباب النسيان ، لا يكاد يذكر منه جيل عن أجداده إلا القليل المحرف غير المستيقن حين تحضر الأمة وتتوقف ، يصح شعرها فيأوي يظهر بجانبه النثر الفني ؛ على أن هذا يستغرق زمناً ، ولا يجيىء الفن إلا متأخراً عن الصناعة وعن العلم . فالإنسان يعمد دائماً إلى الضروري ، حتى إذا ما قضى منه وطره تحول إلى الفن ، أو تحولت الصناعة ذات الغرض المادي إلى فن لا غرض له خارجاً عن ذاته ، وهكذا ينشأ التصوير

جديرة بالتقدير ، فإن ادراك القوة الناطقة لنفسها وإدراكها أنها تدرك أساس موضوع السفور الذي هو من أهم مباحث علم النفس الحديث ، ويمكننا أن نسلم إلى حد ما أن القوى الذهنية أقدر على تحمل المجهود من الأجهزة الجسمية . وليس بغريب على ابن سينا وهو الطبيب المعروف أن يقوم بمثل هذه الملاحظات ولا سيما وأستاذه أرسطو قد سبقه إلى بعضها ومهد له سبيل توسعتها^(١) . ولكن الغريب هو أن تستخدم أفكار أرسطية في إثبات أمر لا يقف أمامه أرسطو موقفاً واضحاً ، فانه غير صريح صراحة أفلاطون في القول بفصل النفس عن البدن وتميزها عنه ، فكأن ابن سينا يبرهنه السابقة ينتصر لأفلاطون في الوقت الذي يزعم فيه أنه يردد آراء أرسطية . وإذا ما شئنا أن نحكم على هذه البرهنة في ذاتها ، وخاصة في جزئها الأخير ، وجدنا قيمتها موقوفة على تفسير الصلة بين الجسم والروح ، وهذا ما سنحاوله في الفرص المقبلة إن شاء الله .

ابراهيم مركور

(1) Aristote , (De l'âme), III, 4.

تاريخ الأدب العربي

للاستاذ احمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

في حوالي ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربي منذ نشأته إلى اليوم

في صورة قوية تحليلية رائعة

ثمّة عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التأليف ومن سائر المكاتب